فتنة السرد وصورة الآخر في رحلة أبي حامد الغرناطي (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)

The Cuteness of Narrative and the Image of the Other in Rihla of Abu Hamid Al-Gharnati (Ichkalat Magazine) *Tuhfat Al-Albab Wa Nukhbat Al-Ijab*

أ. روفيا بوغنوط
الجامعة: العربي بن مهيدي –أم البواقي (الكلية: الآداب واللغات)
البريد الإلكتروني:rofiaboughanout@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2018/03/03	تاريخ المراجعة:2018/03/03	تاريخ القبول:2018/04/09

ملخص البحث

تعمل هذه المداخلة على مقاربة التخييل السردي وصورة الآخر في رحلة أبي حامد الغرناطي "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"؛ هي رحلة نقلت لنا جانبا كبيرا من تاريخ وجغرافية الشعوب، كما اعتمدت على كثير من عوالم الغريب والعجيب، و يعكس النص الرحلي "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" حالات التضايف الحضاري الإيجابي مع الآخر، وفق بناء سردي يقوم على امتصاص كبير للأنساق (الأسطورية والإيديولوجية، واللسانية، والأنثروبولوجية، هذا ما يؤدّي بنا إلى مقاربة:

- عتبات النص الرحلي وبناء المتخيل السردي (العنوان . الاستهلال السردي).
- الراوي /الآخر في تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ـ
- أسطرة الفضاء في النص الرحلي.

الكلمات المفتاحية : السرد؛ الآخر ؛ النص الرحلي، الغرناطي

summary:

The purpose of this paper is to approach the imaginative narrative and the image of the other in the travel of Abu Hamid Al-Gharnati “Tuhfat Al-Albab wa Nukhbat Al-Ijab”; it is a travel that reported us a great part from the History and the Geography of peoples; also it has been relied considerably on foreign and strange parameters. The original travelling text “Tuhfat Al-Albab wa Nukhbat Al-Ijab” reflects the

positive civilisation correlation with the other according to a narrative structure based on a great absorption of systems (the legendary, the ideological, the linguistic and the anthropological). That is what leads us to approach:

1. Sills of the travelling text and the construction of the nnarrative imagined (the title, the narrative initiation)
2. The narrator/ the other in Tuhfat Al-Albab wa Nukhbat Al-Ijab.
3. The Myth of space in the travelling text

Key words: narrative, the other, travelling text, Al-Gharnati.

تقديم:

ألف أبو حامد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الأندلسي الأُقليشي القيرواني (473هـ -565هـ) رحلته/ الكتاب بطلب من معين الدين أبي حفص عمر بن محمد ابن الخضر الأردبيلي، مؤلف كتاب (وسيلة المتعبدين)، الذي يثني عليه أبو حامد في فاتحة الكتاب (ولم يزل أيده الله وأبقاه ومن المكاره وقاه يحثني كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته في الأسفار من عجائب البلدان والبحار)، لم يبن الغرناطي رحلته على نسق منتظم، فقد« كان كتابه غير منتظم أو مرتب بصورة تاريخية وجغرافية، وإنما هو مؤلف بالتداعي، فكل ما يرد على ذهنه يدونه خاصة ما يتسم بالغرابة وما يمكن أن يثير الدهشة »[1]، و قد قام أبو حامد الغرناطيي «بأولى رحلاته إلى مصر حيث استمع إلى بعض علماء القاهرة والإسكندرية ثم رجع إلى وطنه ولكنه لم يلبث طويلا فغادره مرة أخرى سنة 511هـ بنية الرجوع إليه مرة أخرى، وفي رحلته هذه مر على جزيرة سردينيا وعلى صقلية فالإسكندرية والقاهرة، وفي عام 516 نلتقي به في بغداد ؛حيث أمضى أربعة أعوام متمتعا بعطف الوزير المعروف بحبه للأدب والأدباء يحي بن خبير، وفي عام 524هـ نراه بأبهر بإيران، وفي عام 225 هـ يعبر بحر قزوين فيصل إلى مصب نهر الفولجا، وخلال هذه الفترة قام بثلاث رحلات إلى خوارزم ونظرا لعلاقة بلغار

بشبه جزيرة البلقان فمن الجائز يكون قد زار هنغاريا وكان موجودا عام 545هـ وهناك كان يملك منزلا ؛ بل إن ابنه الأكبر حامد تزوج من سيدتين من أهل تلك البلاد وأقام نهائيا، أما الأعوام الأخيرة من حياته فقد أمضاها بمركز الخلافة فكان ببغداد عام 555هـ والموصل 557هـ وتوفي بدمشق سنة 565هـ»[2]

أقسام الكتاب : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب

1 ـ صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها

2 ـ صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان

3 ـ صفة البحار وعجائب حيواناتها

4 ـ صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور

أولا: عتبات النص الرحلي وبناء المتخيل السردي:

1. نظام العنونة :

يشكّل العنوان إستراتيجية ونظاما له خصوصياته ومكوّناتها، فإذا كان «العمل بعلاماته اللغوية المتعددة وقواعده التركيبية المتنوعة يعتبر من جهة إنتاجيّة الدّلالة بمثابة "علامة مفردة" ؛فإن الإنتاجيّة الدّلالية للعنوان على الرغم من ضآلة عدد علاماته واشتغال قاعدة تركيب واحدة غالبا في تنسيقها تجعلنا نعده بمثابة عمل نوعي».[3]

يأتي العنوان ومع اختلاف أنواعه مضمنا بعلامات سيميولوجية دالة تقدم لنا«معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه»[(4)]. إنَّه المحور «الذي يتوالد ويتنامى، ويعيد إنتاج نفسه؛ فهو إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد والأساس الذي يبنى عليه»[(5)]. ولذلك يخضع بناؤه وتكوينه إلى بعد دلالي وآخر تركيبي.

عنون أبو حامد الغرناطي نص رحلته بـ **تحفة الألباب ونخبة الأعجاب**، ومن البيّن أن العنوان قائم على نظام سجعي، يتكون العنوان من مركب اسمي(تحفة الألباب) +حرف عطف +مركب اسمي (نخبة الأعجاب) .

تُحْفَةُ: جاء في لسان العرب التُحْفَةُ الطرفة من الفاكهة وغيرها من الرياحين، أَتْحَفْتُ

الرجل تُحْفَةٌ وهو يتَوَحَفُ، التُحْفَةُ ما أتْحَفَ به الرجل من البر واللطف والنغص [6].

الألباب : العقول، لب الرجل ما جعل في قلب الرجل من عقل .

نخبة :نَخَبَ انتخَبَ الَّشَيء اختاره والنُخْبة ما اختارهُ منه، ونُخْبَةُ القوم ونُخْبَتُهُم أخيارهم[7] .

الأعجاب : عجب : العُجْبُ والعَجَبُ إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، وجمع العَجَبِ أعجاب، وقد ورد لفظ العجيب في القرآن الكريم في قوله تعالى (فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْء عَجِيب) " سورة ق، آية 2 .

العنوان بناء على بنياته (المعجمية ؛ التركيبية؛ الدلالية) « يمكن أن يفضي إلى تجنيس النص وإلى تحديد شكله ودلالته، وترجع هذه الأهمية إلى وضعيته الخاصة بالمقارنة مع العناصر الأخرى »[8].

بهذا فرحلة (تحفة الألباب) نص طريف انتخبته العقول من حكايات ومشاهدات،تحمل الدهشة والغريب، ومن اللافت كذلك أن الغرناطي قد وسم ما تم انتخابه من حكايات في تحفته أنه جاء بقوة العقل، هذا يقضي ـ عنده ـ بضرورة التصديق ويجعلنا نتساءل أولا، عن طبيعة العقل الذي ينبغي له تصديق مثل هذه العجائب؟ وثانيا عن طبيعة العلم الجغرافي في ذلك العصر ؟ .لقد اتجه العلم الجغرافي «خلال القرن السادس وما يليه وجهة عجائبية صرفة ؛ أي إنَّ همَّ الناس اتجه إلى البحث عن عجائب الكون والأرض والمخلوقات، ووصفها والمبالغة في ذلك الوصف، على اعتبار أن ذلك إظهار لقدرة الخالق سبحانه وتعالى على خلق المعجزات والعجائب وما لا يحيط به عقل بشر»[9]، كما أن العقل الذي يبتغيه الغرناطي ينطلق من التفكير الديني، و إن كان يشدِّد على العقل فهو ضمنيا يعمل بما يورده من حكايات عجيبة على تجاوز صرامة العقل، التي ينبغي أن تكون في مثل هذه المواضع .

بنى أبو حامد الغرناطي عالماً خارقاً بالارتكاز على العجيب والأساطير، بالإضافة إلى أنه في نظر كثير من الدارسين والنقاد ينتمي إلى المدرسة العجائبية إن لم يكن أول من ابتدعها، وأنَّه خرق أفقا بكرًا لم يصل إليه أحد قبله، لذا فالنص

الرحلي الغرناطي يؤكد على أدبية الرحلة ؛ ومصطلح أدبية الرحلة يؤكد أن النص امتلك وجوده الشرعي ؛ إذ« تصبح الرحلة أدبا يصدق عليه ما يصدق على المدونة الأدبية في جانبها الأسلوبي بصفة خاصة، من رشاقة التعبير وجمال الأداء وحسن استخدام المحسنات»[10] كما أنَّ سعي الغرناطي إلى ترسيخ فكرة في ذهن قارئه، مفادها أن كل عجيب وارد الحدوث بقدرة الله تعالى؛ فالمنطلق هو أن كل شيء بأمر الله عز وجل، ممّا لن يضع حكاياته الرحلية موضع شك أو تردد في تصديقها؛ إذ يقول : «كما فضل الناس بعضهم على بعض في الرزق وسعة المال، كذلك فضل بعضهم على بعض في العقل، فعقول الملائكة والأنبياء أكثر من عقول جميع العلماء ..وعقول العلماء أكثر من عقول جميع العوام في الدنيا، وعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان، وبقدر هذا التفاوت يقع إنكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل»[11]، بهذا يكون المفتتح السردي، بمثابة تنبيه –بحسب الغرناطي– إلى كل غافل، يضع الحكايات (العجيبة) موضع شك.

يتبدى في موضع آخر حواره مع (الشيخ أبي العباس الحجازي)، ويطلب منه أن يحدثه بما شاهد من عجائب عند أهل الصين يقول«يا أبا العباس، إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب والآن أريد أن أسمع منك شيئا عن عجائب خلق الله تعالى، وكان الشيخ الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري حاضرا، فقال أبو العباس، قد رأيت أشياء كثيرة، ولا يمكن أن أحدث بها؛ لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب، فقال الشيخ الإمام أبو بكر : يكون ذلك من العوام الجهال، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائز والمستحيل، وذكر عجائب خلق الله يستحب التحدث بها إظهارا لقدرته»[12]، ولعل هذا الاتكاء الكبير والانصياع وراء أن كل شيء عجيب وخارق لا يقبل الفهم يتحقق وجوده لقدرة الله عز وجل، قاد الرجل في كثير من الأحايين إلى أن يورد الحكايات دون تقصي حقيقتها ؛حيث إنَّه يرهن عقله لتصديق ما يسمع، وإن خالف في حقيقته منطق العقل إلا أنه «يورد أسماء رواته بدقة ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم، ولهذا يمكن التفريق بسهولة بين مصادر مادته وكثير مما يورده

على لسان الغير لا يمثل في الواقع أهمية ما وذلك لسهولة تصديقه للعجائب واعتقاده فيها »[13] .بل إنّ هذا ما يجعلنا ننصرف بالذهن إلى الاعتقاد بولعه الشديد بكل عجيب بغض النظر عن مصدره ؛حيث إن بعض الحكايات الواردة تتبع نظام التناسل الحكائي (الحكي على الحكي)، وهذا ما يجعلها محملة بكثير من التخييل.

2. الاستهلال السردي:

تمتلك عتبة الاستهلال (l'incipit) قدرة على الجذب، والاستقطاب، والتأثير على المتلقي، فمن السمات الجوهرية له« أنه يعكس جزءا من (ميكانيزم) العملية الإبداعية »[14]،هذا ما ألح عليه كثير من النقاد القدامى، حين تحدثوا عن المطالع وحسن الابتداء« أحسنوا الابتداءات فإنها دلائل البيان»[15]،لما لها من قدرة على جلب الانتباه ويؤكد ابن الأثير على ذلك مبينا شروطه «أن يراعي فيه سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو وأن يكون الافتتاح مرتبطا مع الخطبة ببراعة الاستهلال »[16].

تولدت أهمية البدايات السردية أو الاستهلال السردي «من كونها حلقة تواصل بين المؤلف والسارد من جهة، وبين المتلقي من جهة ثانية »[17] ؛هي عتبة نصية تقود القارئ عبر اللغة السردية إلى عوالم النص، بالإضافة إلى أنها « أعقد أجزاء العمل ؛لأنها واجهته الشفافة التي تدفع القارئ إلى الاقتراب أكثر من النص»[18]. يتمتع الاستهلال بقيمة الإيذان والتلميح «متى ما توجه النظر إلى النص الأدبي على أنه وحدة نسيجية مترابطة تتناسب فيها العلاقات العضوية لتكون كلا موحدا يشد بعضه بعضا ويؤول بعضه إلى بعض»[19]، يضع الاستهلال أو البداية القارئ في سياق النص «فهي مكون بنائي، إنها الجزء المشكل للمفتتح أو المدخل، ما لا يمكن عزلها، عن السرد »[20]

تعدُّ الفاتحة النصية، أو الاستهلال السردي على اختلاف المقابلات للمصطلح الفرنسي (l'incipit)«فاصلة واصلة، إنها قد تحمل علامات أجناسية وأسلوبية ومعجمية تشدُّ النص إلى مجال تناصي لا محدود ليس تاريخ الجنس الأدبي إلا دائرة من دوائره، لكنها أيضا موضع العبور من فضاء خطابي واسع إلى فضاء خطابي

محدد، فالنص يحتاج منذ الفاتحة إلى الإقناع بقيمته باعتباره كلاما جديدا، وإن كانت الوشائج بالسابق من الكلام وثيقة، وفي ضوء الفصل والوصل تتباين الفواتح بتباين الأجناس في الشفوي والمكتوب »[21]،وقد تمتعت على مر العصور مجموعة من الأجناس الأدبية بترسيخ تقليد أجناسي وثقافي في عملية الاستهلال السردي (الحكاية الشعبية، والحكاية المثلية، الأخبار، والمقامة) من خلال علامات بدئية مخصوصة .

يشتغل الفضاء النصي لرحلة الغرناطي على عتبتين نصيتين وضعتا تحت مسمى (تمهيد ـ مقدمة) سنطلق على المجموع الاستهلال.

أ. **الاستهلال الأول /تمهيد:** يقول : «الحمد لله الذي أبدع العالم على توحيده، فشهد كل موجود بوجوده ودنت كل نعمة على كرمه ووجوده، وسخر السموات بأصناف جنوده، وأمرهم بتسبيحه وتقديسه وتمجيده، واسكن الأرض من شاء من عباده، وقسمهم شقية وسعيدة، وغربه وشديديه، وجعل المغرب قبلة المشرق في ركوعه وسجوده فكل محدث مقهور بقدرة معبوده وأظهر في الأفاق من عجائب المخلوقات ما تكل الأوهام عن إحصائه وتقديره وتكييفه وتحديده، .....وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل أنبيائه، ورسله وأوليائه وشهوده صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره »[22]. تندرج هذه البداية النصية في الرحلة ضمن التحميدات، قد تعدُّ بمثابة إشعار للمتلقي، بغية أن يستشرف مسار الحكي، وهو تقليد راسخ في أدبيات السرد العربي القديم .

ب. الاستهلال الثاني /مقدمة : يفتتح نص تحفة الألباب ونخبة الإعجاب بمقدمة «كما فضل الناس بعضهم على بعض في الرزق وسعة المال، كذلك فضل بعضهم على بعض في العقل، فعقول الملائكة والأنبياء أكثر من عقول جميع العلماء.وعقول العلماء أكثر من عقول جميع العوام في الدنيا، وعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان، وبقدر هذا التفاوت يقع إنكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل، لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل فالعاقل إذا سمع عجبا جائزا

استحسنه ولم يكذب قائله ..والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزيف ناقله، وذلك لقلة بضاعة عقله وضيق باع فضله وقد وصف الله تعالى الجهال بعدم العقول بقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) سورة الفرقان آية 44 »[23].

ما نتلمسه من هذه (المقدمة) أن العجيب في تصور الغرناطي ليس موضع شك ـ سبق وأشرنا إلى ذلك ـ وقد رتب له مجموعة من المتلقين، كما لم يسمح بأي نزوة ارتيابية قد تخامر مخيلة المتلقي ؛ بل إنَّ الارتياب دليل نقصان العقل، وإن كنا نرى أنه من« أسهل الأمور علينا أن نهمل مالا نصدقه، ونطرحه جانبا على أنه خرافة أو مغالاة، كما أن من أسهل الأمور على العوام حينما يسمعون بتلك الوقائع أن يصدقوها، وأن يعملوا على إذاعتها، إلا أننا إذا اتجهنا هذا الاتجاه أخطأنا فهم الكثير مما توارد على ألسنة الرحالة والجغرافيين ومؤلفي كتب العجائب من العرب وغيرهم»[24]، بالإضافة إلى أن الغرناطي جعل طبقة العوام ؛هي الطبقة الثالثة من حيث قدرة العقل، وطبقة النساء فصلت عن العامة، ممَّا يفضي بالقول إنَّ النظرة المتشكلة تضع المرأة في أدنى درجة، وترفع طبقة العوام/الرجال إلى درجة أعلى، وهذا يبرز الهيمنة الذكورية في التصنيف، المستندة إلى أن المرأة ناقصة عقل تليها مباشرة طبقة الأطفال، وهذا في اعتقادنا يحمل نوعا من الانتقاص للمرأة، فما كان ضره لو أدخل المرأة ضمن جموع العوام المتلقين دون فصل على أساس الجنس.

من اللافت في هذه العتبات البدئية، الاستعانة بشواهد استهلالية وظفت تبريرا للمقاصد وتصويغا لها ؛بل إنها بهذه الشاكلة « تزكية للحكي والمحكي عنهم جنبا إلى جنب »[25]، ففي المقدمة يورد مجموعة من الآيات القرآنية، من البيّن أنَّها تخدم السياق الذي يبتغيه الغرناطي، منها : قوله تعالى (أم تَحْسِب أنَّ أكْثَرهم يسمعون أو يعقلون)سورة الفرقان، 44 وقوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)سورة يوسف آية 105، وفي قوله تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)سورة العنكبوت آية 20، ثم يورد بعض الأبيات الشعرية لم يحدِّد صاحبها :

في الأرضِ آياتٌ فلا تك منكرًا *** فعَجَائِبُ الأشياءِ من آياتهِ[26]

تعدُّ الشواهد الاستهلالية حجة لما جاء في رحلة (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب)، يتخير لها متلق بأفق محددٍ، هو ذلك الذي يصدق الحكايات من منطلق إيمانيّ بقدرة الله عز وجل دون حالة شك في وجودها أو كينونتها، ودون الالتفات إلى أن هذه الحكايات منسوجة من مخيلة جمعية، وإن نقلت من رواة وصفهم الغرناطي بـ(الرواة الثقاة)، وهو بهذا يصادر حالات الشك– المحتمل في الرواية المنقولة. ولسنا نتفق–هنا– على مسألة الرواة الثقاة لهذه الحكايات العجيبة، فكل فعل حكي منقول قابل للزيادة فيه أو النقصان، لن يسلم من حالات التخييل، مادام باب العجيب مفتوح، كما أن ذلك يخضع بالضرورة إلى طريقة وأسلوب الناقل أو الراوي .

ثانيا: الأنساق الغيرية في رحلة الغرناطي (تجليات الأنا والآخر):

بداية لابد أن نحدِّد أنَّ « صورة الآخر ليست هي الآخر، صورة الآخر بناء في المخيال وفي الخطاب، الصورة ليست الواقع حتى وإن كان الصراع حولها من رهانات الواقع، ولأنها كذلك فهي اختراع »[27]، والآخر في أكثر معانيه شيوعا « يعني شخصا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحدة، وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة أستطيع (نستطيع) تحديد اختلافي (اختلافنا) عنها وفي مثل هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر »[28]، ينضاف إلى ذلك تنامي «الدراسات المقارنة وتطور الدراسات الغيرية في حقول الجماليات والتحليل النفسي والأنتروبولوجيا، والدراسات السياسية وعلم الاجتماع الأدبي والدراسات الثقافية، لم يَعُد من المقبول اختزال تجليات الغيرية، في مفهوم الآخر وصورته من حيث هو أجنبي فقط ؛بل تخطى الأمر ذلك ليشمل مختلف الحدود والقيم والأنساق الذهنية التي تولد صلات الكراهية والعنف والألم والنفي والتهميش، أو الرغبة والاحتضان، التسامح والاندماج»[29]، بصورة أخرى إن حضور الآخر في النصوص، هو حضور للأنساق الغيرية .

ولا تخلو ثقافة من الثقافات من تمثيل للذات والآخر، فالأنساق الثقافية الغيرية « مواضعة اجتماعية دينية، أخلاقية، استيتيقية، في لحظة معينة من تطورها، الوضعية الاجتماعية . والتي يقبلها ضمنيا المؤلف والجمهور »[30]،ويرتكز النسق «

على معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءا من بيئة الفاعلين»[31]. وتخدمنا مقاربة الأنساق في رحلة الغرناطي، من تبين صورة الآخر/المختلف (عقائديا، واجتماعيا).

1. النسق الثقافي– النظرة العقائدية ومركزيتها :

شكلت الخلفية الدينية في علاقة الأنا بالآخر قاعدة أساسية و«دورا حاسما في معرفة الثقافة العربية الإسلامية للآخرين، فالثقافة التي تمتلك دينا تختلف من حيث درجة التحضر عن الثقافة التي لا دين لها، ولا شريعة »[32]، بصورة أخرى تتحدد النظرة إلى الآخر بالاستناد إلى جوانب دينية متعلقة بالكفر والإيمان، أو ما نسميه بالمركزية الإسلامية ؛ حيث وسمت صورة الآخر عند الرحالة العرب بمجموعة من التحديدات، فالابتعاد عن الشمس وبالتالي عن نور الحضارة الإسلامية والاقتراب من سلطة الرطوبة قد ورث الآخر مجموعة من الصفات السلوكية (سوء الأخلاق، غلبة الحيوانية)، السكيولوجية (غلبة الشهوة . سيطرة الغضب . حدة النفس، قسوة القلب)، الثقافية (قلة الفطنة) الفيزيونومية (عظم البدن)[33] .

بهذا المنظور غدا نص الرحلة نصا غنيا بالأنساق الثقافية، التي تتجلى أثناء التماس مع الآخر، وذلك بحكم اختلافه ثقافيا وحضاريا ودينيا خصوصا أنَّ «مرجعيات النظر العربي الإسلامي للآخر تتكىء، أولا وقبل كل شيء، على قاعدة دينية تأسيسية »[34]، وقد ألفينا النظرة الغيرية عند الغرناطي، محملة بتحديدات قائمة على توجهات عقائدية، فلا يؤسس النسق الثقافي الديني «الرؤية الكونية للمؤمنين به فحسب، بل هو أساس إنسانية البشر في هذا الوجود، فالإنسان لا يتحدد بشكل ولا لون إنما يتحدد بمدى تمثله للأنساق والأعراف الثقافية »[35]، لذلك طبعت نظرة الرحالة المسلمين بتحكم عامل الدين معيارا للتفوق الإنساني، فمن لا دين له ليس في عداد الإنسانية ؛لأنَّ الدين نسق ثقافي «أنيطت به تنظيم الحياة البشرية، ومسؤولية الإجابة عن الأسئلة الإنسانية المحيرة»[36]، بناء على ذلك يتحدد الآخر عند الغرناطي بمنطلق ديني، هذا ما أنتج لنا الأنا المسلمة بإزاء الآخر الكافر، وقد ورد ذلك في ثنايا الرحلة وفي عدة مواضع نمثل لها بـ :

1. «أهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، مبسط الشعور، فيهم عقول وفهم ويحجون إلى مكة»[37]

2. «ومن أنواع السودان ربلع وهم أعف أهل السودان، مسلمون يصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة، وبلاد السودان على الزنج وأبيجاه مسيرة أربع عشرة سنة يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفأر»[38] .

3 . «وفي بحر الروم من الجزائر كثير جدا منها جزيرة تسمى بسردانية وهي عظيمة جدا فيها أمة من الكفار خلق كبير شجعان»[39].

الملاحظ أن الانتقاص من الآخر، يتولَّد داخل الرحلة بسبب غياب الجانب العقائدي الديني (تجلى في المقطعين الإصرار على الدين الإسلامي سببا للتفوق)، فكلما غاب الدين وبرز ما يتعارض مع الإسلام، إما أن يصفهم بأمة الكفار أو يسوء الوصف وتنسب إليهم (هم/ الآخرون) أرذل الصفات، وهنا – في هذا الوصف– يكون الدين غائبا تماما عن هذه الجماعات«أما فاوة وقوقو، قصار الأعناق، فطس الأنوف، حصر العيون كأن شعورهم حب فلفل، ورائحتهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبال مسمومة بدماء حيات صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السم عن عظمه ولو كان فيلا»[40]، ويلتزم الغرناطي بالمنظور العقائدي حتى مع البيئة الإسلامية، التي تعمدُ إلى تغييب الدين الإسلامي، بوصفه خلفية حياتية من خلال الابتعاد عن تعاليمه في الممارسات الحياتية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تجلى هذا في قوله «أهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم عليها، رجالها حفاة عراة، ونساؤها كساة عراة، وأهل اليمن أهل سمع وطاعة، ولزوم جماعة، وأهل عُمان عرب استبطوا وأهل البحرين نبط استعربوا، وأهل اليمامة أهل جفاء واختلاف في الرأي، وأهل فارس أهل بأس شديد وعارٍ عتيد، وأهل العراق أبحث الناس عن الصغيرة وأسبقهم لكبيرة، وأهل الجزيرة أشجع الفرسان وأقتل للقران، وأهل الشام أطوعهم للمخلوق، وأعماهم للخالق، وأهل مصر عبيد لمن غلب، أليس الناس صغارا وأجلهم كبارا»[41]، وفي موضع آخر يتحسر الغرناطي على ملوك المسلمين، الذين لا يتبعون العدل ونمط حياة، الذي كان له أن عايشه عند أهل الهند

والصين« والملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذي لا خوف معه في بلاد الهند وبلاد الصين»[42] .

تبرز لنا طبيعة التسامح والاعتراف بتفوق الآخر في ظل غياب النسق الديني الإسلامي، وإن كنا نقول بوجود نسق حضاري فكري، جعل الغرناطي يبدي إعجابه بعدل ملوك الصين وتنظيمهم للمجتمع وفق قوانين كان المسلمون أولى بها، ونشير إلى أن حجته وتفسيره لكل ذلك الرخاء لا ينفك يرتبط بالنسق الديني الإسلامي، من خلال الاستشهاد بقوله صلى الله عليه وسلم ("الدنيا جنة الكافر، وسجن المؤمن)،«والسجن موضع الضيق والخوف، لا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثر الظلم والجور وقلة المال والخصب وحتى يتحقق في حق المؤمن السجن في الدنيا والجنة موضع الرخاء والنعمة والأمن والعدل والسياسة والطيب وأنواع الطيبات، والحمد لله الذي جعل جور ولاة المسلمين من معجزات سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم»[43].

نشير إلى أنَّ رحلة الغرناطي قد مكنتنا من رسم صورة للآخر، الذي يقع شرق الدولة الإسلامية، دون أن تلقي بالا أو حديثا أو وصفا مشابها لأصقاع تقع جهة الغرب وعلى الأغلب، إن الرحالة لم يصل إلى تلك البيئات ولم يعاينها فما وجد كان نزراً يسيراً، جاء متناثرا في ثنايا الرحلة، وهذا ما جعل الجهة الغربية تبدو مجهولة لقارئ الرحلة، يقول «لما كنت في باشغرد سنة خمس وأربعين وخمسمائة كان بيني وبين رومية أياما يسيرة وسألت المسلمين الذي يسافرون إليها من باشغرد عن صفتها، فوصفت لي، كما كتبتها هاهنا وذكر أن أكثر المدينة قد خرب الآن لن الأمراء تنافسوا في البلد وتقاتلوا والملك الكبير لا يقدر على قهرهم »[44] . وهو بهذا يورد أخبار المدن وفق ما وصله من حكايات عنها، ولم يلزم ذاته بالتشكيك فيها .

ثالثا ـ البنية العجائبية في تحفة الألباب ونخبة الأعجاب :

بنية الوصف – العجائبي : حسب ما ذهب إليه تدوروف يقوم العجائبي (le fantastique)على «التردد الذي يحس به كائن لا يعرف غير قوانين الطبيعة فيما يواجه حدثا غير طبيعي حسب الطاهرة»[45]، بهذا فالتردد هو« الذي يمدُّ العجائبي

بالحياة »[46]، وهكذا يتنامى العجائبي «ويحدد موقع الواقعي، فهو بناء لغوي ولقاء بين المألوف واللامألوف، بين أدوات طبيعية وأخرى فوق طبيعية ـ غيبية. لإيجاد حالة من الزج بالواقعي»[47] .

ورد في قاموس المصطلح السردي لجرالد برنس الوصف Description «عرض وتقديم الأشياء والكائنات والوقائع والحوادث (المجردة من الغاية والقصد) في وجودها المكاني عوضا عن الزمني، وأرضيتها بدلا من وظيفتها الزمنية، وراهنيتها بدلا من تتابعها، وهو تقليد يفترق عن السرد»[48]، ولا يأتي «الوصف في معظم الأحيان شكلا مستقلا من أشكال الكتابة باستثناء الأسفار،ومن النادر أن ينهض الوصف بنفسه مستقلا؛ فتأتي الفقرة الوصفية جزءا من عمل أكبر»[49]، ومن هنا كان من أبرز الأساليب الفنية والتصويرية والتعبيرية، كما أنه يمتلك طرائقه الخاصة «كبيان الحال الذي يقوم على تعيين الخصائص الأساسية للموصوف (الشكل، اللون، الحجم)،أو بيان العلاقة التي تقضي بتعيين موقع الموصوف داخل المكان والزمان، أو على مقارنته بموصوفات أخرى من خلال التشبيه والاستعارة، ويمكن أن يتناول الموصوف مجملا أو جزءا منه»[50].

يعمل الوصف على «تغيير المستوى الذي سيتبدى فيه أفق انتظار القارئ، ذلك فعلا، لأن أفق الانتظار الذي يفتحه النظام الوصفي يبدو أكثر تركيزا على البنى السميائية السطحية منه على البنى المعمقة وعلى الهياكل المعجمية للنص أكثر منه على بنيته المنطقية الدلالية الأساسية، كما يبدو أكثر تركيزا على تجلي الحقول المعجمية أو الأسلوبية وتفعيلها منه على إيجاد نحو منظم لجدلية من المضامين»[51]، هو بهذا استدعاء لذاكرة المخزونات المعجمية، كما يدعو النص قدرة القارئ المعجمية أكثر من قدرته النحوية.

يجنح صاحبه الرحلة أبو حامد الغرناطي في كثير من الأحايين إلى استغلال الوصف العجائبي لإبراز صورة الآخر «وعن صنعاء أمة من العرب قد مسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان له نصف رأس، ونصف بدن ويد واحدة، ورجل واحدة، يقال لهم ويار، وهم من ولد إرم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عقول يعشون

الآجام وفي بلاد الشحر على شاطئ بحر الهند»[52]، وفي موضع أخر يصف بعض أهل المغرب « وذكر أن في فيافي بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يكون بينهم ذكر، ولا يعيش في أرضهم وأن أولئك النساء يدخلن في ماء عندهم فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل امرأة بنتا ولا تلد ذكرا البتتة»[53]، تعمل هذه الحكايات على استقطاب المتلقي وتوسيع مخيلته؛ فهي حكايات تتوفر على عنصر التشويق والإثارة. حُمِّل الوصف الوارد في المقطعين بجانب عجائبي ؛حيث استعان الغرناطي بالسرد الوصفي العجائبي وكانت نيته تأكيد أن في خلق الله كثير من العجائب التي تستحق التصديق ؛ وهي نية راسخة في ذهن الغرناطي لم يجنح عنها ؛بل إنها بؤرة الرحلة، غير أن ما أورده من وصف للأخر (صنعاء . فيافي المغرب) يبعث على الاستغراب ويولد الارتياب في ذهن المتلقي، مما يفضي باستحالة التصديق، ولنا أن نقول إنه قد لجأ إلى الخارق والعجيب تعويضا عن جهل لهذه البيئات الجغرافية، فعدم القدرة على معاينتها واقعيا، يفضي بانفتاح الرحالة على التخييل، فالأفضية مجهولة عند المتلقي وتأثيثها بحكي عجائبي يخلق فتنة سردية.

1. بينة الشخصيات في تحفة الألباب ونخبة الأعجاب أهم سمة لازمة بنص الرحلة حضور الشخصيات العجائبية، وقبل الوقوف عند الشخصيات العجائبية،نفرد تحديدا لمفهوم الشخصية، فقد كانت محط عناية لدى كثير من الدارسين ذلك أنها تمثل مع الحدث عمود الحكاية، «وقد نبهت السرديات مستندة إلى المقاربات البنيوية والسيميائية ....»،ومن أهم خصائص الشخصية في الرحلة، شخصية الرحالة فهي توسم «بافتقادها لملامح سيكولوجية أو فسيولوجية، فهي شخصية لا تبكي أو تضحك لا هي بالسمينة أو النحيفة، إنها شخصية فكرية تمارس ارتحال عبر جدلها مع العالم المرئي بمكوناته الإنسانية وغير الإنسانية »[54]، وتقسم الشخصيات وفق تحديد فيليب هامون إلى :

أ. **الشخصيات المرجعية** : وهي شخصيات لها حضور واقعي كالشخصيات التاريخية، الشخصيات الأسطورية (فينوس روس) شخصيات مجازية (الحب،

الكراهية) شخصيات اجتماعية (العامل، الفارس، المحتال)تحيل كل هذه الشخصيات على معنى ممتلئ وثابت[55].

ب. **الشخصيات الإشارية** : وهي دليل حضور المؤلف أو القارئ أو من ينوب عنهما في النص، شخصيات ناطقة باسمه[56] .

ج. الفئة الثالثة عند هامون هي **الشخصيات الاستذكارية** :هي شخصيات تقوم بنسج شبكة من الاستدعاء والتذكير بأجزاء ملفوظية وذات أحجام متفاوتة، ووظيفتها وظيفة تنظيمية وترابطية بالأساس،إنها علامات تشحذ ذاكرة القارئ، إنها شخصيات للتبشير، شخصيات لها ذاكرة وتقوم ببذر أو تأويل الأمارات[57] .

يُقدِّم سعيد يقطين ثلاثة أنواع من الشخصيات : الشخصية المرجعية وردت بالتحديد ذاته الذي قدمه فيليب هامون والشخصية التخييلية «شخصيات لا نجد لها حضورا واقعيا متعينا، ولا نستطيع أن نجد لها أصلا في المرجعية الثقافية والنص المكتوب، إنها شخصيات من نسج الخيال، وإبداعه الخلاق، يشكلها بغية أن يتمم عوالمه الحكائية ويضفي عليها مسحة من التطوير الدرامي الذي تعينه في تأسيس الشخصيات المرجعية »[58] أما حين ترتبط الشخصيات بالعجائبي فذلك « تثمين للتيمات بالكثافة التخييلية التي تخلق شخصية عجائبية محضة أو عادية تؤسس لأفعال عجيبة»[59]، وقد تكون الشخصيات العجائبية الجوهرية أو العرضية Accidentellement بتعبير سعيد يقطين مرجعية نصية، تظهر بجلاء في كتب التاريخ والجغرافيا، والكتب الدينية وبهذا تتداخل مع الشخصيات المرجعية [60]، وتزخر السير الشعبية والحكايات العجيبة بهذا النمط، وقد ألفينا في رحلة الغرناطي سردا لحكايات شخصياتها من الجن والمسخ، وقد تجلى ذلك في (حديث البحيرة والجن المسجونين)، فحين وصل موسى بن نصير ومن معه إلى بحيرة «أمر الغواصين فغاصوا في البحيرة فأخرجوا جبا من النحاس عليها أغطية من النحاس، قال : ففتح منها جبا فخرج فارس من نار على فرس من نار في يده رمح من نار، فطار في الهواء وهو ينادي يا نبي الله لا أعود»[61]، ثم فتحوا جبا آخر« فخرج منه فارس كالدخان على فرس كالدخان في يده رمح كالدخان وهو يقول يا نبي الله لا

أعود»[62]،وبعد أن فتحوا الجب الثالث وخرج منه« فارس كالصقر على فرس كالصقر في يده رمح كالصقر فطار في الهواء وهو ينادي يا نبي الله لا أعود »[63]، قال الأمير موسى ومن كان معه من العلماء، ليس الصواب أن تفتح هذه الجباب لأن فيها جنا قد سجنهم سليمان بن داود عليهما السلام لتمردهم، فأعاد بقية الجباب إلى البحيرة [64]، كما أورد في موضع آخر حديثا عن خلق الجان «لما أراد الله أن يخلق الجان بقدر خلق نار السموم، وخلق من مارجها خلقا سمَّاه جانا(...) ثم خلق من الجن زوجته وسماها جنية، فغشاها زوجها الجان فحملت ما شاء الله فلما أثقلت وضعت إحدى وثلاثين بيضة، فانفلقت بيضة واحدة، فخرج منها حيوان على خلاف الجن في الخلق والشكل، فقالت لها الجنية : من أنتِ، فقالت قُطربة أم القطارب فقالت الجنبة : يا قطربة لماذا خلقت؟ قالت قطربة خلقت لأحضن هذا البيض وأفرقه في مضانه، قالت الجنية فدونك.فجلست القطربة على ذلك البيض شهرا واحدا، فقصت منها بيضة واحدة فخرج منها ستون ألف إبليس وستون ألف إبليسة، ذكورا وإناثا والله أعلم / إبليس اللعين منهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفا من السعالي وستون ألفا من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفا من الغيلان ومثلهم من إناثهم »[65]، ما يمكن قوله إن العجائبي «يستمد وجوده من التراث العربي والإسلامي في جانبه السردي من حكايات وتصوف وأخبار.. ومن الملل والنحل والمعتقدات الشعبية ومن عنف الواقع وإكراهاته فضلا عن تأثيرات المثاقفة»[66]، وهذا ما يغذي النص الرحلي، ويجعله منفتحا على التعالق النصي.

يتجلى لنا ومن خلال الوصف أن الحكاية تضفي على الجان بعدا حيوانيا في تكاثرهم، كما يستحضر شاهده من القرآن الكريم، ليوجه القارئ بذلك إلى تعديل أفقه نحو التصديق دون التكذيب؛ لأنه يدرك أن قارءه لن يصدق هذه الحكايات، وبغية تحقيق حالة التصديق، يلجأ إلى النص القرآني ليثبت أن الجن قد ورد ذكره وبهذا لا مجال إلى التكذيب كأنه نوع من ضبط أفق القارئ وتوجيه عملية التلقي بـ قوله تعالى (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)سورة الحجر آية 27.

المسخ : تبدو الحكايات التي جاءت عن أهل صنعاء في قوله «وعن صنعاء أمة من العرب قد مسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان له نصف رأس، ونصف بدن ويد واحدة، ورجل واحدة، يقال لهم ويار، وهم من ولد إرم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عقول يعشون الآجام وفي بلاد الشحر على شاطئ بحر الهند»[67] مناسبة لما يمكن أن نسميه الممسوخات وهي« كائنات ناتجة عن تركيب أكثر من جنس، أو التي نجدها جنسا مختلف التركيب عن باقي الأجناس»[68]، ولا نعتقد أن العمالقة من البشر كائنات ممسوخة، كما قد يذهب البعض فرغم كبر حجمها وضخامتها إلا أنها تحافظ على تركيبتها البشرية السوية.

رابعا: عجائبية الفضاء :

1. **مصطلح الفضاء** : جاء في لسان العرب فضا يفضوا فهو فاض وفضا المكان وأفضى، إذا اتسع، وأفضى فلان إلى فلان إذا وصل إليه، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه والفضاء الخالي، الواسع من الأرض[69].

يقترن مصطلح الفضاء في الدراسات العربية بمصطلح المكان«فالعربية اكتشفت المكان في امتداد الأرض؛ فهو كل ما يوطأ ويستقر عليه إنه الثبات وبالتالي يصبح المكان حاملا للأشياء وهو يمكنه أن يضمها (...) في حين أن الفضاء بالمفهوم الغربي يتسم بالتجريد، فإنَّ الفضاء في اللغة العربية مرتبط بالمكان في انغلاقيته أي ذلك المكان الفيزيقي الذي تتموضع فيه الأشياء المدركة مباشرة عن طريق الحواس، قبل أن يستقر مفهومه على الإخلاء أو الخلو من المكان، فالمكان أصله الأرض وعندما يتجرد يصبح الفضاء »[70]، وفي إطار هذا الطرح يوظف عبد الملك مرتاض مصطلح (الحيز) مقابلا للمصطلح Espace «إن مصطلح الفضاء من منظورنا على الأقل، قاصر بالقياس إلى الحيز ؛ لأن الفضاء من الضروري أن يكون معناه جاريا في الخواء والفراغ، بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء والوزن، والحجم والشكل »[71]، ليقصر مرتاض مصطلح المكان على مفهوم الحيز الجغرافي وحده.

اختلف النقاد في دراساتهم للفضاء «فإن كان الفضاء مجالا مفتوحا للاجتهاد والتصورات المتعددة التي لم تصل إلى حد بلورة نظرية عامة للفضاء، بل ظلت وجهات نظر الباحثين تتأسس وفق قاعدة ما تقدمه أعمال محددة، ولم يصل الأمر إلى تصورات لها حد الشمولية والعمومية»[72]، قبل الحديث عن بينة الفضاء في النص الرحلي، نحدّد أنواع الأفضية.

2. أنواع الفضاءات:

أ. **الفضاءات المرجعية** :وهي الفضاءات التي يمكن العثور عليها في أرض الواقع، ضمن المصنفات الجغرافية أو التاريخية القديمة والتي لا يمكن أن تحدد إلا من خلال الاسم أو الصفات وتكون بذرة للعجائبي، كما تجلى في مدينة النساء التي تقع في فيافي المغرب « وذكر أن في فيافي بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يكون بينهم ذكر، ولا يعيش في أرضهم وأن أولئك النساء يدخلن في ماء عندهم فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل امرأة بنتا ولا تلد ذكرا البتتة»[73].

ب. **الفضاءات التخييلية** : هي فضاءات يقوم الراوي باختلاقها بما يقتضيه السرد كالفضاء الوردي . الفضاء القفري ـ فضاء المعارك . والفضاء المتخيل بكل أشكاله كفضاء العالم الآخر ـ وفضاء الرؤيا والحلم والمنامات [74]، هذا الأخير «الذي ينبني على نسيج فكري فني يغاير النصوص السردية المعروفة، هو نص رمزي مشبع بالدلالات والرؤى، الأمر الذي يقربه من النص المحير »[75]، ومن بين المنامات التي وظفت فضاء الآخروي نُلفي المنام الكبير للوهراني[76]، الذي سعى صاحبه إلى تعرية واقع اجتماعي وسياسي وديني وأدبي مسيطر،عبر تصوير بانورامي انتقادي ساخر لمجتمع القرن السادس هجري « وقد أطر منامه الكبير بسخرية لاذعة ماجنة، إلا أنه حملها سؤالا واضحا عن دولة اتخذت أرباب العلم والأدب والفقه والقضاء، وهم متهمون في ذلك كله، أركانا لها»[77]،إن مثل هذه النصوص –عموما– تعمل على كشف عيوب نسقية (فكرية، ثقافية، اجتماعية، دينية) داخل المجتمع.

خامسا: أسطرة الفضاء في رحلة الغرناطي :

1. مدينة إرم ذات العماد :يكون الفضاء في هذه الحال خارجا عن المألوف و« اعتياصه عن التصنيف في المفهوم التقليدي للجغرافيا»[78]، يتمظهر الفضاء العجائبي في رحلة الغرناطي في الحكاية التي أوردها عن الشعبي صاحب كتاب (سير الملوك) عن مدينة إرم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد، وقد افتتح سرده بما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7) التي لم يخلق مثلها في البلاد (8))، بهذا الصنيع يحاول أن يضع في ذهن قارئه حقيقة وجود هذه المدينة رغم أن «خبر ورود ارم ذات العماد في القرآن إنما كان على سبيل الإخبار بإهلاك القبيلة المسماة بعاد لا الإخبار عن المدينة»[79] قال : «قال كعب الأحبار إن الله وصف قصة إرم ذات العماد لموسى عليه السلام وصفة بنيانها »[80]، وممّا يروى عن (شداد ابن عاد) بعد أن سمع بجنة الله التي وعد بها المتقين «أمر ألف أمير من جبابرة من قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضا كثيرة المياه، طيبة الهواء، بعيدة من الجبال ليبني عليها مدينة من ذهب قال فخرج الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من جنده وحشمه وطلبوا أرض اليمن حتى صلوا إلى جبل عدن، فرأوا هناك أرضا واسعة كبيرة العيون طيبة الهواء كما أمرهم به الملك شداد، قال فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائيين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخا كل وجه عشرة فراسخ فحفروا الأساس على الماء وبنوه بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الدنيا ثم بنوا فوقه بلبنات الذهب الأحمر سورا علوه خمسمائة ذراع في عرض عشرين ذراعا .... ففرغ ذلك في عشر سنين فزينت المدينة بالفرش ...»[81]، وقد أخفى الله المدينة عن أعين الناس في طرفة عين، فخروا على وجوههم صرعى ولم يبق منها إلا لمعان الذهب واليواقيت تضيء كالمصابيح بالليل، فإذا اقتربوا منها لم يجدوا شيئا، بعد ذلك يورد الغرناطي على لسان كعب الأحبار، أن رجلا من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام دخل إليها في عهد معاوية، يدعى عبد الله بن قلابة، كان قد خرج في طلب ابل له ظلت، فمازال يقتص أثرها حتى وصل إلى جبل عدن، فظهر له سور إرم ذات العماد؛

فاقترب منه إلى أن دخل المدينة التي عظمت في عينه وقال في نفسه : هذه تشبه الجنة التي وعدها الله عباده المتقين في الآخرة، وحمل منها ما قدر عليه من جواهر ويواقيت وبلغ خبره معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال: هي إرم ذات العماد أخفاها الله عن أعين الناس، وسيدخلها من هذه الأمة رجل يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري، وجعل يصفه ثم إنه نظر إلى عبد الله المذكور جالسا عند معاوية فقال : هذا هو ذاك القاعد فسله عما قلت لك، فإن صفته واسه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة [82].

من اللافت أنَّ هذا الوصف العجائبي لمدينة (إرم ذات العماد)، يشي بأن مخيلة العربي السردية تمتلك قدرة فائقة على نسج فضاءات ومنحها شرعية الحياة الجغرافية الوهمية، وإن كانت قد تعود مثل هذه الحكايات إلى الإسرائيليات[83]، والحقيقة إن هاجس الغرناطي الأساسي كان «مطاردة الإشعاعات الأسطورية المنتشرة هنا وهناك على الرقع الجغرافية التي تنتقل وفق تداعٍ ينافي المسار الفعلي الذي يسلكه المستكشف الجغرافي أثناء ارتياده الأفاق، وهو ما جعل بنية النص منذ انبثاقه على نهايته يتألف من مقاطع وصفية تحتل فقرة أو فقرتين، وهي وحدة جغرافية مستقلة لا ترتبط عضويا بما قبلها »[84]، وقد ألفينا وصفا لمجموعة من الفضاءات العجائبية كـ(مدينة النحاس) والتي تزعم الحكايات أن (موسى بن النصير) قد سار إلي الأندلس للتعرف عليها، ومنارة الإسكندرية المبنية بحجارة مهندمة مضببة بالرصاص على قناطر من زجاج، وحائط العجوز بمصر وهو من المباني القدم في مصر، والتي بنته دلوكا أحد ملوك مصر، وهذا الحائط من العريش على أسوان شاملا أعمال مصر من الجانب الشرقي، وتزعم القبط في سبب بنيانها له، أن الله لما أغرق فرعون خافت دلوكا على مصر أن تطمع الملوك فيها فبنته وزوجت النساء من العبيد حتى تكثر الذرية [85].

2. **الفضاء البحري** : يمتاز بخصائص عدة من بينها الغموض، وسيطرة الرعب على الرحالة أثناء اجتيازه «ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة لم اسمع قط أوحش منها ولا

أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي وسقطت على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في الحبر واضطرب البحر علينا، وعظمت أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله »[86]، كما يشهد هذا الفضاء انتشار العجيب والغريب .

3. **الفضاء البري** :يفسح هذا الفضاء المجال للوصف، عن طريق تعداد جزئياته الكثيرة، واختلاف صوره وأحداثه [87]، وقد تجلى ذلك في وصفه لمنارة الإسكندرية.

بهذا فقد، بنيت الأفضية عند الغرناطي وفق هندسة تتكئ على التشويق ؛حيث اعتمد عجيب الحكي ، إلا أن اللافت هو رهان صاحب (تحفة الألباب)على تحويل ما هو عجيب إلى حقيقة قابلة للتصديق، مما يخول لنا القول لقد شكل نصا رحليا، يتمتع بفتنة سردية عالية .

وفي الختام لنا أن نقول :

- ✓ حملت نظرة الغرناطي في تشكيل صورة الآخر بالبعد العقائدي عبر تحكم النسق الديني بصفة عامة والإسلامي على وجه الخصوص . وقد تلمسنا أن الانتقاص من الآخر يتجلى في حالة غياب الدين، وتتحقق درجة التفوق والانسجام كلما كانت الأمة التي ارتحل إليها الغرناطي مسلمة .
- ✓ توسم الأفضية في رحلة الغرناطي بالبعد العجائبي وتجلى ذلك مع الأصقاع التي تصعب فيها حركات التواصل ومعاينتها فتتحول إلى فضاءات متخيلة قائمة على استثمار المدهش والخارق والعجيب مثل ما هو في وصف فضاء /مدينة النحاس .
- ✓ استغل الغرناطي الشخصيات العجائبية والتي تتناسب مع المخطط الذي ابتغاه في إيراد عجائب خلق الله في الأرض .

هوامش:

[1] ـ فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط2، مصر، 2002 ص 358

[2] ـ اغناطيوش بوليانوتتش كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج1، الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية، مصر، 1957، ص 295

[3]– محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ط1،الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1998، ص23

[4]– محمد مفتاح: دينامية النص (تنظير وإنجاز)، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1990، ص57.

[5]– محمد مفتاح : دينامية النص، ص57.

[6]– ابن منظور : لسان العرب، مادة تحفة .

[7]– ابن منظور : لسان العرب مادة نخب.

[8]– عبد المجيد نوسي :التحليل السيميائي للخطاب الروائي (البنيات الخطابية ـ التركيب ـ الدلالة)، شركة النشر والتوزيع، اط1، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 109

[9]– حسين مؤنس : الجغرافيا والجغرافيون، مكتبة مدبولي، ط1، مصر، 1986،ص 242

[10]– حسن مودن أدبية الرحلة، دار الثقافة، ط1، المغرب، 1996، ص 25

[11]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2003، ص 15

[12]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص 75

[13]– اغناطيوش بوليانوتتش كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص296.

[14]– ياسين نصير : الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ص21.

[15]– أسامة بنمنقد . البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد الحميد،القاهرة، 1960، ص285.

[16]– ابن الأثير : المثل السائر ج2،ص304.

[17]– شعيب حليفي : هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، ط1، المغرب، 2005، ص91.

[18]– المرجع نفسه : الصفحة نفسها.

[19]– ناهضة عبد الستار : بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات، والوظائف، والتقنيات، دراسة، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2003، ص86.

[20]– صدوق نور الدين : البداية في النص الروائي، دار الحوار، ط1، سوريا، ص17.

[21]– محمد القاضي وآخرون : معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، تونس، 2010، ص 302.

[22]- أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص 15.

[23]– المصدر نفسه: ص 16/15.

[24] – فوزي حسين : حديث السندباد القديم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1997، ص 59.

[25] – هاشم أسمهر : عتبات المحكي القصير في التراث العربي والإسلامي الأخبار والكرامات والطرف، ص243.

[26]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص15 .

[27] – الطاهر لبيب : صورة الآخر ناظرا ومنظورا له، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 199، ص38.

[28]– سعد البازعي وميجان الرويلي : دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2002 ص23.

[29] – شرف الدين ماجدولين : الفتنة ولآخر الأنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت /الجزائر، 2012،ص 26

[30] –عبد الفتاح كيليطو : المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الخطيبي، ط2 . دار توبقال، المغرب، 2001، ص 8

[31]– إيديث كويزيل : عصر البنيوية ترجمة جابر عصفور، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص411

الأنساق بعضها .كامن وبعضها ظاهر في آية ثقافة من الثقافات، وتتفاعل هذه النظم والعلاقات المجازية عن التذكير والتأنيث الثقافيين، العرق . الدين . الأعراف الاجتماعية . القيود السياسية . التقاليد الأدبية . الطبقة . علاقات السلطة التي تحدد المواقع الفاعلة للذوات »ينظر : ضياء الكعبي : السرد العربي القديم والأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005، ص 22.

[32]– نادر كاظم : تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص105.

[33]–عبد النبي ذاكرة : العين الساخرة، أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربة، المركز المغربي للتوثيق والبحث، ط1، المغرب، 2000، ص21.

[34]– محمد نور الدين أفاية : الغرب المتخيّل صورة الآخر في الفكر لعربي الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، 2000، ص288.

[35]– نادر كاظم : تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص 108.

[36] – المرجع نفسه : ص 114.

[37]– أبو حاد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص18.

[38]– المصدر نفسه: ص19.

[39]– المصدر نفسه : ص74.

[40]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص18.

[41]– المصدر نفسه : ص 74.

[42]– المصدر نفسه: ص 21.

[43]– المصدر نفسه : ص22.

[44]– المصدر نفسه : ص 59.

[45]– تزفيتان تدوروف : مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، تقديم محمد برادة، دار الكلام، ط1، الرباط/المغرب، 1994، ص49.

[46]– المرجع نفسه : ص 48.

[47]– شعيب حليفي : هوية العلامات في العتبات والتأويل، ص 198.

[48]– جرالد برنس: المصطلح السردي معجم مصطلحات،ترجمة عابد خزندار، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2003 ص 58.

[49]– إبراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبية، ط1، الموسوعة العربية للناشرين المتحدين، صفاقس /تونس، 1986،ص 406.

[50]– لطيف زيتوني :معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي – إنجليزي – فرنسي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 2002،ص171

[51]– فيليب هامون : في الوصفي، ترجمة سعاد تريكي، بيت الحكمة، ط1، قرطاج /تونس، 2003، ص 84.

[52]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص.19

[53]– المصدر نفسه : ص 19.

[54] – عبد الرحيم مودن : أدبية الرحلة، ص 33.

[55]– فيليب هامون : سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ترجمة عبد الفتاح كيليطو وسعيد بنكراد، دار الكلام ن ط1، المغرب، 1990، ص 24.

[56] – المرجع نفسه : ص 24.

[57] – المرجع نفسه: ص 25.

[58] – دعد نصار : المنامات في الموروث الحكائي العربي دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، ص 294.

[59] – محمد القاضي وآخرون : معجم السرديات، ص270.

[60] – سعيد يقطين : قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت /الدار البيضاء، 1997ص 99.

[61] – أبو حامد الغرناطي : تحفة اللباب ونخبة الأعجاب، ص 33.

[62] – المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

[63] – المصدر نفسه: ص33.

[64] – المصدر نفسه : ص 34.

[65] –المصدر نفسه : ص 23.

[66] – شعيب حليفي : هوية العلامات في العتبات والبناء، ص 199.

[67] – أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص19.

[68] – سعيد يقطين : قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص 102.

[69] – ابن منظور : لسان العرب مادة أفضا، ج13.

[70]– مطاع الصفدي : مغامرة الاختلاف والحداثة، ضمن جلة الفكر العربي المعاصر، عدد45/44، 1967، ص4.

[71]– عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، يصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون وا الآداب، الكويت، 198، ص 141.

[72]– سعيد يقطين : قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص238.

[73]– أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص 19

[74] – سعيد يقطين : قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص274

[75] – دعد الناصر : المنامات في الموروث الحكائي العربي دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 ن بيروت، 2008، ص 23

[76]– ركن الدين محمد بن مجمد بن محرز الوهراني المتوفي سنة1575، يكاد يكون مجهولا لدي جمهرة المتأدبين في العصر الحاضر، والمتخصصون في تاريخ الأدب العربي لا يعرفون عنه إلا القليل، يعود نسبه إلى مدينة وهران بالغرب الجزائري لم تصر المصادر شيئا عن ولادته ونشأته

ودراسته، واكتفت بالقول إنه عالم أديب شاعر. جاء مصر ثم ارتحل إلى الشام في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي .

[77]– دعد النصار : المنامات في الموروث الحكائي، دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، ص195

[78] . عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية بحث في تقنية السرد، سلسلة عالم المعرفة تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، 1988، ص161.

[79]– عبد الملك مرتاض : الميثولوجيا عند العرب دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات القديمة، المؤسسة الوطينة للكتاب، الجزائر، 1989، ص 97.

[80] – أبو حامد لاغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص 27.

[81] . المصدر نفسه : ص 28/27.

[82] – المصدر نفسه: ص30.

[83] – عبد الملك مرتاض : الميثولوجيا عند العرب، ص97.

[84] – كمال بولعسل : سيميائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، مخطوط ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ص 72.

[85] – أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، ص 49.

[86] – المصدر نفسه:، ص 69.

[87] – عبد الرحيم مودن : أدبية الرحلة، ص49.